ذكر الرءوس الثمانية

[هذا النص منقول عن مقدمة كتاب الخطط
للمقريزى ، وقد شرح فى هـذه السطور ، الغرض
من كتابه والمنهج الذى سلكه فى ترتيب موضوعاته].

اعلم أن عادة القدماء من العلمين قد جرت أن يأتوا بالرءوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهى: الغرض، والعنوان، والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أىّ صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأىّ أنحاءالتعاليم المستعملة فيه فنقول:

(أما الغرض) فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرّق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر ، وهى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان ، اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة ، ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها ، وكيف كانت مصائر أمورهم، وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر.

(وأما عنوان هذا الكتاب) أعنى الذى وسمته به، فإنى لما فحصت عن أخبار مصر، وجدتها مختلطة متفرقة ، فلم يتهيأ لى إذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة ، لاسيما فى الأعصر الخالية ، ولا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أخر تظهر عند تصفّح هـذا التأليف ، فلهذا فرّقتها فى ذكر الخطط والآثار، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله ؛ وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرّق وتبدّد من أخبار مصر . ولم أتحاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه ، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب ، كى يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عما فى غيره من الفصول ، فلذلك سميته « كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

(وأما منفعة هذا الكتاب) فإن الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه ، أعنى أن منفعته هى أن يشرف المرء فى زمن قصير ، على ما كان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة ، فتهذب بتدبر ذلك نفسه، وترتاض أخلاقه، فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه ، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها والإقبال على ما يبقى .

(وأما مرتبة هذا الكتاب) فإنه من جملة أحد قسمى العلم اللذين هما العقلى والنقلى ؛ فينبغى أن يتفرغ لمطالعته وتدبر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية والعقلية . فإنه يحصل بتدبره لمن أزال الله أكنّة قلبه وغشاوة بصره، نتيجة العلم بما صار إليه أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال والجنود من الفناء والبيوت فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية والنقلية ليعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل .

(وأما واضع هذا الكتاب ومرتّبه) فاسمه أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد ويعرف بالمقريزى رحمه الله تعالى ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبعمائة من سنى الهجرة المحمدية . ورتبته من العلوم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألّفه .

(وأما من أىّ علم هذا الكتاب) فإنه من علم الأخبار ، وبها عرفت شرائع الله تعالى التى شرعها ، وحفظت سنن أنبيائه ورسله ، ودوّن هداهم الذى يقتدى به من وفقه الله تعالى إلى عبادته ، وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته . وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة ، وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا مانهوا عنه . وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة ما دوّنوه من العلوم والصنائع، وتأتّى لهم علم ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأمصار النائية وغير ذلك مما لاينكر فضله . ولكل أمّة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف

عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم . ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر . ولو استقصيت ما صنّف علماء العرب والعجم فى ذلك، لتجاوز حدّ الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره .

(وأما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة) ؛ أولها : يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها . وثانيها: يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها . وثالثها : يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها . ورابعها: يشتمل على أخبار القاهرة وخلائقها وما كان لهم من الآثار . وخامسها: يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال . وسادسها: يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها . وسابعها : يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر . وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدّة أقسام .

(وأما أىّ أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب) فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهى: النقل من الكتب المصنّفة فى العلوم ، والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس ، والمشاهدة لما عاينته ورأيته . فأما النقل من دواوين العلماء التى صنّفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه ، لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته ، فكثيراً ممن ضمنى وإياه العصر واشتمل علينا المصر ، صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه . ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله . وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ولا يحتاج فى الشريعة إليه . وحسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإنى فى الغالب والأكثر ، أصرّح باسم من حدّثنى ، إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين .

وقد قلت فى هذه الرءوس الثمانية ما فيه قنع وكفاية ، ولم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت وعزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط وفى كل أثر من الآثار على حدة ، ليكون العلم بمايشتمل عليه من الأخبار أجمع، وأكثر فائدة وأسهل تناولا، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وفوق كل ذى علم عليم .